﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: 74 - 76]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

شَفَقةُ المؤمنِ على النّاسِ مُستَودَعُ الخيراتِ ومنبَعُ البركاتِ

"لَمّا كان أكثَرُ مُجادَلةِ إبراهيمَ ﷺ لما عِندَهُ من الشَّفَقةِ على عبادِ اللّه؛ لِما لهُ من هذه الصِّفاتِ الجليلةِ؛ أعلَمَهُ اللّه أنَّ الأمرَ قد حُسِم بقَولِهِ حكايةً على لسانِ الرُّسُلِ، أو وحيًا من اللّه تعالى إليه مباشرة: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[1]، فالمناسبةُ بين الآياتِ بيانُ شفقةِ إبراهيمَ الخليلِ ﷺ بالنّاس، وأنَّها أصلُ المَكْرُماتِ، وفي هذه المناسبةِ فائدةٌ عظيمةٌ، وهي أنَّ اللّه يجازي عبادَهُ بما يرجونَهُ لخلقِ اللّه، بل هو أكرمُ وأعظمُ عطاءً ومنَّةً.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرَّوْعُ﴾: "الرَّوْعُ والرُّواعُ والتَّرَوُّعُ: الفَزَعُ، راعَني الأمرُ يَرُوعُني رَوْعًا ورُووعًا، وكُلُّ شَيْءٍ يَروعُك منْهُ جَمالٌ وكَثرةٌ، تَقُولُ: راعَني، فَهُو رائِعٌ، والرَّوْعةُ: الفَزْعةُ، وفي حَديثِ الدُّعاءِ: «اللهمَّ آمِنْ رَوعاتي» هِيَ جَمْعُ رَوْعةٍ، وهِيَ المَرَّةُ الواحِدَةُ منَ الرَّوْعِ الفَزَع"[2]، و"الرُّوعُ بالضَّمِّ: القلبُ والعقلُ"[3]، "أو مَوْضِعُ الفَزَعِ منهُ"[4]، و"الرَّوعُ: ما أُلقِيَ في القلبِ من الفَزَعِ"[5].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/233.
(2) ابن منظور، لسان العرب: 8/135.
(3) أبو البقاء، الكليات، ص: 480.
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط، ص: 724.
(5) الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: 2/231.

والمقصودُ في الآيةِ: ما كان للخليلِ ﷺ من الخوفِ الَّذي أصابهُ بسببِ امتناعِ الأضيافِ من تَناولِ الطَّعام.

2) ﴿يُجَادِلُنَا﴾: "الجَدْلُ: شِدَّةُ الفَتْلِ، وجَدَلْتُ الحَبْلَ أجْدِلُهُ جَدْلًا؛ إذا شَدَدْتُ فَتْلَهُ، وفَتَلْتُهُ فَتْلًا مُحْكَمًا"(1)، و"الجِدالُ: المفاوضةُ على سبيل المنازعةِ والمغالبةِ، وجدلْتُ البِناءَ: أحكمتُهُ، ودِرْعٌ مَجْدُولَةٌ، والأجْدَلُ: الصَّقرُ المُحكَمُ البِنيَةِ، والمِجْدَلُ: القصْرُ المحكمُ البناءِ، ومنهُ: الجِدالُ، فكأنَّ المتجادلَيْنِ يَفْتِلُ كلٌّ واحدٍ الآخرَ عن رَأيهِ، وقيل: الأصلُ في الجِدالِ: الصِّراعُ وإسقاطُ الإنسانِ صاحبَهُ على الجَدالَةِ، وهي الأرضُ الصُّلبةُ"(2).

والمقصودُ في الآيةِ: هو مجادلَةُ الخليلِ ﷺ الرُّسلَ في شأنِ عذابِ قومِ لوطٍ، رجاءَ ترْكِ المعاجَلةِ؛ لعلَّ اللّه يهديهم، ويُصلِحُ حالَهم.

3) ﴿أَوَّاهٌ﴾: آهِ: حكايةُ المُتأوِّهِ في صوتِه، وقد يفعلُهُ الإنسانُ منَ التَّوجُّعِ، وأهَّ فلانٌ أهَّةً وآهةً(3)؛ إذا توجَّعَ، فقال: آهِ، أو قال: هاهِ عند التَّوجُّعِ، فأخْرَجَ نفسَهُ بهذا الصَّوتِ؛ ليتفرَّجَ عَنْهُ ما بِهِ، والأوّاهُ: الدَّعّاءُ للخيرِ(4)، و"رَجُلٌ أوّاهٌ: كَثيرُ الحُزنِ، وقيلَ: هُو الدَّعّاءُ إلى الخَيْرِ، وقيلَ: الفَقيهُ، وقيلَ: المؤْمنُ، بلُغَةِ الحَبَشَةِ، وقيلَ: الرَّحيمُ الرَّقيقُ، وفي التَّنْزيلِ العَزيزِ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾، وقيلَ: الأوّاهُ هُنا: المُتأوِّهُ شَفَقًا وفَرَقًا، وقيلَ: المُتَضَرِّعُ يَقينًا؛ أي: إيقانًا بالإجابَةِ ولُزُومًا للطّاعَةِ... وفي الحَديثِ: (اللهمَّ اجْعَلني مُخْبِتًا أوّاهًا مُنيبًا)، الأوّاهُ: المُتأوِّهُ المُتَضَرِّعُ"(5)، والأوّاهُ هنا "هو المبتهلُ إلى اللّه، المتخشِّعُ في ابتهالِهِ، الرَّحيمُ الَّذي يُكثِرُ من التَّأوُّهِ خوفًا وإشفاقًا منَ الذُّنوبِ"(6).

4) ﴿مُّنِيبٌ﴾: "نابَ فلانٌ إلى اللّه تعالى وأنابَ إليه إنابةً، فَهُو مُنيبٌ؛ أي: أقْبَلَ، وتابَ، ورجَعَ إلى الطّاعَةِ، وقيلَ: نابَ: لَزِمَ الطّاعَةَ، وأنابَ: تابَ ورجَعَ، وفي حَديثِ الدُّعاءِ: «وإليك أنَبْتُ». الإنابةُ: الرُّجوعُ إلى اللّه بالتَّوبةِ، وفي التَّنْزيلِ العَزيزِ: ﴿*مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾

(1) ابن منظور، لسان العرب: (جدل).
(2) الراغب، المفردات، ص: 189.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أنَّ).
(4) الخليل، العين: (أوه).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (أوه).
(6) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/65.

[الروم: 31] أي: راجِعِينَ إلى ما أمَرَ بِهِ، غَيْرَ خارِجِينَ عَنْ شيءٍ مِنْ أمْرِه، وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: 54] أي: تُوبوا إليهِ، وارْجِعُوا"[1].

5) ﴿أَعْرِضْ﴾: "العَرْضُ: خلافُ الطُّولِ، وأصلهُ أن يقالَ في الأجسام، ثمَّ يستعملَ في غيرها كما قال ﷻ: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: 51]. والعُرْضُ خُصَّ بالجانبِ، وأعْرَضَ الشَّيءُ: بدا عُرْضُهُ... أعْرَضَ عنِّي: ولَّى مُبديًا عُرْضَهُ، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: 22]"[2]، وكذا "أعْرَضَ عَنِ الشَّيْءِ؛ إذا ولّاه ظَهْرَهُ"[3]، و"أعْرَضَ عَنْهُ: صدَّ"[4]، والمرادُ في الآيةِ، هو تَرْكُ مجادلةِ الرُّسُلِ الكرام في شأنِ عذابِ قوم لوطٍ.

6) ﴿مَرْدُودٍ﴾: "الرَّدُّ: صَرْفُ الشَّيءِ بذاتِه، أو بحالةٍ من أحوالِه، يقال: رَدَدْتُهُ، فارْتَدَّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: 147]، فمنَ الرَّدِّ بالذّاتِ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28]... ومنَ الرَّدِّ إلى حالةٍ كان عليها قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: 149]، وقولُهُ: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: 107]؛ أي: لا دافِعَ ولا مانِعَ لهُ، وعلى ذلك: ﴿عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: 76]"[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّنُ الآيةُ حالَ إبراهيمَ عليه السلام بعد ذهابِ رَوعِهِ من امتناعِ الرُّسلِ عن تناولِ الطَّعام، "فلمّا اطمأنَّ قلبُهُ بعد الخوفِ، ومُلِئَ سرورًا بسببِ البُشْرى بدلَ الغَمِّ، فرَغ للمجادلةِ"[6]، شفقةً من نزولِ العذابِ بقومِ لوطٍ عليه السلام وذلك أنَّ " إبراهيمَ لحليمٌ، فلا يُحبُّ أن يُعاجِلَ

اللـه تـعـالى يـحـبُّ المؤمـنين ويكرِّمُهم، ومع ذلـك لا يَـقْـبَـلُ شـفـاعـتـهـم في الكافرين

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ناب).
(2) الراغب، المفردات: (عرض).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(4) أبو البقاء، الكليات، ص: 624.
(5) الراغب، المفردات: (رد).
(6) الزمخشري، الكشّاف: 2/412.

بالعقوبةِ، كثيرُ التَّأوُّهِ والتألُّم من عذابِ النّاس، منيبٌ إلى الله ﷻ وراجعٌ إليهِ"[1]، فناداه الله تعالى أو نادته الملائكة أن يا إبراهيم انصرف عن الجدالِ لـ "إنّه قد نفذ فِيهِم القضاء، وحقّت عليهِم الكلِمة بِالهلاكِ، وحلولِ البأسِ الّذِي لا يردّ عنِ القوم المجرِمينَ"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاءِ ودلالتُها:

بيانُ مسارعةِ الأحداثِ، وأنَّ الأمرَ جَلَلٌ لا يحتملُ الانتِظارَ

دخلتِ "الفاءُ في جملة ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾؛ لربْطِ بعضِ أحوالِ إبراهيمَ ﷺ ببعضٍ غِبَّ[3] انفصالِها بما ليس بأجنبيٍّ من كلِّ وجهٍ، بل له مدخلٌ تامٌّ في السِّباقِ والسِّياقِ"[4].

وقد آثرَ النَّظمُ الكريمُ العطفَ بالفاءِ في جملةِ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾؛ لأنَّها تُفْصِحُ عن أنَّ الوقتَ الَّذي قضاهُ الخليلُ إبراهيمُ ﷺ في معالجة الرَّوْعِ كان خاطِفًا سريعًا سرعةَ الفاءِ مع لمّا، فما هي إلّا لحظاتٌ حتَّى وقفَ ﷺ على حقيقةِ أضيافِهِ، ورجعَ إلى حالةِ طُمأنينتِهِ، وتجاوزَ لحظاتِ السَّعادةِ بِبُشْرى الإنجابِ، ثمَّ عاد سريعًا إلى القضيَّة الكبرى لتنزُّلِ الملائكةِ الكرام في عذابِ قوم لوطٍ.

فحَقُّ العطفِ إذًا أن يكونَ بالفاءِ في جُملةِ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ﴾، ولا تلائمُ الواوُ هذا السِّياقَ؛ لأنَّها هادئةٌ تُؤذِن بشيءٍ من الفُتورِ، وربَّما حلَّت محلَّ (ثمَّ)، فتؤذِنُ بالتَّراخي، فهي إذًا البديلُ المسموحُ لـ (ثمّ) مع (لمّا)، فتُناسبُ المقاماتِ المتراخيةَ، أمّا (الفاءُ)؛ فتُؤْذِن بِطَيِّ الوقتِ، وتتآزرُ مع (لمّا) في وصلِ الجزاءِ بالشَّرطِ[5].

(1) حجازي، التفسير الواضح: 2/136.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/336.
(3) غبّ: إثر.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/226.
(5) أحمد محمّد سعيد، الأثر البلاغيّ للفاء والواو الداخلتين على لمّا الحينيّة، مجلّة جامعة الإمام، 1443هـ.

سرُّ إيثارِ ﴿فَلَمَّا﴾ دونَ (حين):

المسرّاتُ الشَّخصيَّةُ لا تمنعُ من العنايةِ بأحوالِ الآخرين

(لمّا) تُفيدُ تقليصَ الزَّمنِ بين جزائِها وشرطِها، ومعناها في الآيةِ: أنَّ جدالَ الخليلِ ﷺ ملائكةَ الرَّحمنِ بشأنِ إيقافِ هلاكِ قوم لوطٍ جاء سريعًا، فبمجرَّدِ ذهابِ الرَّوع ومجيءِ البُشرى، أقبلَ يُجادِلُ في دفعِ عذاب قوم لوطٍ ﷺ فلم يمنعْهُ رَوْعُهُ بامتناعِ ضيوفِهِ عن تناولِ الطَّعام من العِجْلِ السَّمين الحنيذِ، ولا بُشراهُ بإنجابِ الولدِ - مع عظمتِها - عن محاولةِ الذَّودِ عن قوم لوطٍ ﷺ لعلَّهم يتوبون من الفاحشة، فكان مضمونُ جزاءِ الشَّرطِ المحذوفِ ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ فوريًّا بعد ذهابِ الرَّوعِ وتلقِّي البُشرى.

أمّا كلمةُ (حين)؛ فلا تفي بترجمَةِ هذهِ السُّرعةِ الخاطفةِ، وطيِّ الزَّمنِ بينَ الحَدَثَيْنِ، ولو قيل: (فحين ذهبَ عن إبراهيمَ الرَّوعُ يُجادِلنا في قوم لوطٍ)؛ تجدُ الفتورَ بَيِّنًا، لا يلائِمُ معالجةَ ظرْفِ إهلاكِ قريةٍ بأكملِها، وهي قريةُ نبيِّ اللّه تعالى لوطٍ ﷺ فتوتُّرُ اللّحظةِ وشدَّةُ المصيبةِ لا يَحتملانِ فُتورَ (حين)، ولا يناسبُهما إلّا أداةُ الشَّرطِ (لمّا)، والفاءُ الَّتي آزرتْها، ووفَّتْ بحقِّ هذا المقام.

بلاغةُ التَّعبيرِ المجازيِّ:

تجسيدُ الرَّوعِ لبيانِ شدَّتِهِ على إبراهيمَ ﷺ

لفظُ الذَّهابِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ إمّا أنْ يُحملَ على المجازِ العقليِّ، أو الاستعارةِ؛ إذِ الذَّهابُ من صفاتِ الأحياءِ، وقد جاءَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ سُلوكًا مثبَتًا للرَّوْعِ، وكأنَّ له إرادةً، فيذهبُ برغبتِهِ، وفي هذا مجازٌ عقليٌّ بإسنادِ فعلِ الذَّهابِ إلى غيرِ فاعلِهِ، ونكتةُ هذا الإسنادِ المجازيِّ تجسيدُ الرَّوعِ لبيانِ شدَّةِ أثرِهِ على إبراهيمَ ﷺ.

وتوجيهُ الاستعارةِ: أنَّ الرَّوْعَ لا يذهبُ وإنَّما يتلاشى، فلم يَقُلْ: (فلمّا زال الرَّوعُ)، فشبَّهَ زوالَ الرَّوعِ وتلاشيَهُ بالذَّهابِ، وصرَّحَ

بالذَّهابِ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ؛ لبيانِ زوالِه بالكلِّيَّةِ، دون أن يبقى له أثرٌ، وهذهِ الصُّورُ البيانيَّةُ المتكاثفةُ الظِّلالِ تُضْفي على المعاني خيالًا طريفًا، وتعكِس شدَّةَ الرَّوعِ الذي مَلَكَ على إبراهيمَ الخليلِ ﷺ كيانَهُ، والتَّوجُّسَ الَّذي لفَّهُ من هؤلاء الضِّيوفِ الَّذين أسرعَ في إكرامهم، وبالغَ في الإكرام، ثمَّ توقَّفوا عن الطَّعام في منظرٍ يثيرُ الفزعَ؛ إذ امتناعُ الأضيافِ عن تناولِ طعام مُضيفِهم كانت، ولا زالت أمارةَ شرٍّ ونذيرَ عداوةٍ، أو خصومةٍ على الأقلِّ، فكلُّ ذلك يُثبِت أنَّ إبراهيمَ ﷺ سرعانَ ما استجمعَ نفسَهُ، وتجاوزَ اللَّحظةَ، حتَّى إنَّه لم يتوقَّفْ طويلًا عند البِشارةِ الكُبرى، وعند فرْحةِ زوجتِه السَّيِّدةِ سارةَ بهذهِ البُشرى الجديدةِ بإنجابِ إسحاقَ، ومن وراءِ إسحاقَ يعقوبُ، وأنَّ كلَّ ذلك سيكونُ في حياتِهم، وفي ذلك بِشارَةٌ بطولِ العُمُرِ حتَّى يَروا الابنَ ثمَّ زوجَهُ، ثمَّ حفيدَهُم منهُ.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور على الفاعِلِ:

العنايةُ بإبراهيمَ ﷺ والتَّشويقُ لمعرفةِ ما ذهبَ عنهُ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَنْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ على الفاعل ﴿ٱلرَّوْعُ﴾؛ لأنَّ الغرضَ كلَّهُ يتعلَّقُ بالمقدَّم ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ ﷺ لا بالمؤخَّرِ، فهو المعنيُّ ببيانِ الهدوءِ وذهابِ الرَّوعِ عنهُ، وهو المقصودُ بالمجادلة الآتيةِ في جوابِ ﴿فَلَمَّا﴾، كما يتَّفِق أنَّ مع تأخيرِ ﴿ٱلرَّوْعُ﴾ "تَبقى النَّفسُ منتظرةً إلى ورودِه، فيتمكَّنُ فيها عندَ ورودِهِ إليها فضلَ تمكُّنٍ"[1].

بالإضافةِ إلى أنَّ استعمالَ حرفِ ﴿عَنْ﴾ يُوحي بأنَّ الرَّوْعَ كان شديدًا على إبراهيمَ ﷺ حتَّى لَكأنَّهُ شخصٌ مسلَّطٌ على إبراهيمَ ﷺ يهزُّهُ ويُؤذيه، وأنَّ تلاشيَهُ وفتورَهُ وانتهاءَهُ كان بمنزلةِ ذهابٍ عنهُ، وتركٍ لَهُ، وكأنَّ إبراهيمَ ﷺ تخلَّصَ منهُ، فكأنَّه نشِطَ من عِقالٍ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/226.

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلرَّوْعُ﴾:

بلوغُ الخوفِ مبلغًا كاملًا إلى حدِّ الامتلاءِ النَّفسيِّ

في اصطفاء مفردةِ ﴿ٱلرَّوْعُ﴾ دلالةٌ على أنَّه كان مُريعًا مُرْعِبًا، فالرَّوعُ هو القلبُ، وسُمِّيَ به الخوفُ لبلوغِهِ أعلى الدَّرجاتِ، وعليهِ فمعنى تعريفِهِ بـ (أل) يشيرُ إلى أنَّه كان رَوْعًا كاملَ التَّرْويعِ، فهو ﴿ٱلرَّوْعُ﴾ الحقيقُ بهذه الصِّيغَةِ؛ لذلك كان تلاشيهِ وفُتُورُهُ عن إبراهيمَ ﷺ ذهابًا كاملًا بلا أثرٍ، كما سبقَ بيانُ ذلك في بلاغةِ التَّعبيرِ المجازيِّ في مفردة ﴿ذَهَبَ﴾.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ:

تصويرُ المعاني لتهويلِ مشهدِ الرَّوعِ

الرَّوعُ لا يذهبُ بذاتِهِ، فهو معنًى لا ذاتٌ حيَّةٌ تتحرَّكُ تحرُّكًا إراديًّا، ففي قولِهِ تعالى: ﴿ٱلرَّوْعُ﴾ استعارةٌ بتشبيهِ الرَّوعِ برجلٍ ذاهبٍ، ثم حذفَ المشبَّهَ بهِ، وهو الرَّجلُ، وذكرَ المشبَّهَ مع ذكرِ لازمٍ من لوازمِ المشبَّهِ بهِ، وهو الذَّهابُ، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ الأصليَّةِ، والاستعارةُ أبلغُ من الحقيقةِ؛ إذ تشخيصُ المعنى فيه تهويلٌ تصويريٌّ فوق التَّهويلِ الدِّلاليِّ.

براعةُ عطفِ الجملِ:

التَّخليةُ قبلَ التَّحليةِ والمسرّاتُ عاقبةُ الملمّاتِ

ذكر النَّظمُ الكريمُ ذهابَ الرَّوعِ من إبراهيمَ ﷺ ثمَّ عطفَ عليهِ مجيءَ البشرى، وهذا من بابِ التَّخليةِ قبل التَّحليةِ؛ إذ اقتضى لطفُ اللهِ تعالى بعبدِهِ الخليلِ أن يُكافئَهُ بعدَ ذلكَ الرَّوعِ الَّذي أصابَهُ، ببُشْرى الولدِ، ومن هذا من لطيفِ الإشارةِ إلى عنايةِ اللهِ بعبادِهِ المقرَّبين، أنَّه لا يتركُهم في المُلمّاتِ حتَّى يكافِئَهم بالمسرّاتِ.

بلاغةُ المجازِ:

اجتماعُ مجازٍ عقليٍّ واستعارتين دليلُ الكمالِ البيانيِّ تصويرًا وتجسيدًا

في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ تعبيران مجازيّان، أمّا الأوَّلُ؛ ففي لفظِ ﴿وَجَآءَتْهُ﴾، فالبشرى لم تجئْ إبراهيمَ ﷺ من تلقاءِ نفسِها، وبإرادةٍ منها، وبقدرةٍ على تنفيذِ الإرادةِ، فالَّذي بشَّرهم الملائكةُ الكرامُ، فكان الظَّاهرُ أن يقالَ: وجاءتْهُ الملائكةُ بالبشرى،

غير أنَّ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ لِعظمتِها وضخامتها وعُلُوِّ قيمتِها عُبِّرَ عنها بإسنادِ المجيءِ إليها، على سبيلِ المجازِ العقليِّ، أو الاستعارة؛ حيث شبَّهَ الإخبارَ عن الشَّيءِ بمجيئِهِ، وصرَّحَ بالمشبَّهِ بهِ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ.

وأمّا الآخرُ؛ ففي لفظِ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، إذ شبَّهَ البُشرى بامرأةٍ جاءتْ بعد ذهابِ الرَّوعِ، وحذفَ المشبَّهَ بهِ، وذكرَ لازمًا من لوازم المشبَّهِ، وهو المجيءُ، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ الأصليَّةِ.

بلاغةُ اختيارِ المفردةِ:

تهلُّلُ البَشَرةِ دليلُ سعادةِ القلبِ والعقلِ والرُّوحِ

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بالبُشرى دونَ الخبرِ؛ وذلك لأنَّ "البشارةَ هي الخبرُ السّارُّ، فهي أخصُّ من الخبرِ، وسُمِّيت بذلك؛ لأنَّ آثارَها تظهرُ على بشَرَةِ الوجْهِ؛ أي: جِلْدِهِ"[1]، وهو الَّذي تنْضَحُ عليه آثارُ الأخبارِ السَّعيدةِ، فتكونُ أظهرَ ما تكونُ في البشَرَةِ انفراجًا وتهلُّلًا، ففيها كنايةٌ عمّا يستقرُّ في القلبِ والعقلِ والكيانِ من أسبابِ السَّعادةِ.

معنى التَّعريفِ:

بُشرى إبراهيمَ عليه السلام استثنائيَّةٌ في تاريخِ البشريَّةِ

التَّعريفُ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ عَهديٌّ ذِكْريٌّ، حيثُ أُشيرَ إليها في قولِهِ تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾، وفي هذا التَّعريفِ بيانٌ لكمالِ هذهِ البُشرى، فإنَّ مجيءَ خبرِ الإنجابِ إلى إبراهيمَ عليه السلام في هذهِ السِّنِّ، وجبْرَ خاطرِ السيِّدةِ سارَّةَ ليس بـ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ الاعتياديَّةِ الَّتي يعتادانِها في حياتِهما، بل إنَّها البُشرى الجديرةُ بهذهِ التَّسميةِ، وبهذا التَّعريفِ الَّتي لا يُوصَفُ سواها؛ إذا قيسَ بها بأنَّه بُشرى.

حِلمُ إبراهيمَ ورأفتُهُ هي الباعثُ على المجادَلةِ

علَّةُ فصلِ الجملةِ عنِ السّابقِ:

اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ في كونِهِ استئنافًا

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/239.

أو حالًا، وهذهِ الأوجهُ الصناعيَّةُ تلتقي في دلالةٍ متقارِبَةٍ، وهي أنَّ حالَ إبراهيمَ ﷺ هي الرَّأفةُ والرَّحمةُ بقوم لوطٍ ﷺ فإذا جعلناهُ استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا قد سألَ: وماذا قالَ الخليلُ حينئذٍ، فهذا من شبهِ كمالِ الاتِّصالِ، وإذا جعلناهُ حالًا؛ فهو بيانٌ لحالِهِ، فتكونُ جملةُ الحالِ مبيِّنةً لشأنِهِ في الخبرِ السّابقِ، فغرضُ مجادلَتِهِ ﷺ رحمةُ قوم لوطٍ ﷺ لدفْعِ العذابِ عنهم.

دلالةُ استعمالِ مفردةِ المجادلةِ دونَ المحاورَةِ:

كِنايةٌ عن رحمةِ الخليلِ بالعاصينَ وحِلمِهِ بالنّاس جميعًا

مادَّةُ الجدالِ مأخوذةٌ من جَدْلِ الحبْلِ، وجدْلُهُ يحتاجُ إلى إحكامٍ وقوَّةِ فتْلٍ؛ ليتحمَّلَ الشَّدَّ بهِ، ففي استعمالِها في قولِهِ تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ دلالةٌ على قوَّةِ إحكامِ إبراهيم ﷺ الكلامَ، وقوَّةِ منطقِهِ، والحرصِ على بلوغِ الغايةِ من هذا الجدالِ بدفْعِ العذابِ، فـ "المُجادَلَةُ هُنا: دُعاءٌ ومُناجاةٌ سَألَ بها إبْراهيمُ ﷺ رَبَّهُ العَفْوَ عَنْ قَوْمِ لُوطٍ خَشْيَةَ إهْلاكِ المُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ"[1]، و"تَأْخِيرِ العَذابِ عَنْهُمْ؛ إذ كانَ يَمِيلُ إلَى أنْ تَلْحَقَهُمْ رَحْمَةُ اللّه بِتَأْخِيرِ العَذابِ عَنْهُمْ رجاءَ أنَّهم أقْدَمُوا عَلَى الإيمانِ والتَّوْبَةِ عَنِ المَعاصِي، وأنَّ أمْرَ اللّه ورَدَ بإيصالِ العَذابِ، ومُطْلَقُ الأمْرِ لا يُوجِبُ الفَوْرَ، بَلْ يَقْبَلُ التَّراخِيَ، فَقالَ للملائكةِ: اصْبِرُوا مُدَّةً أُخْرَى، ولَعَلَّ إبْراهِيمَ ﷺ سَألَ عَنْ لَفْظِ ذَلِكَ الأمْرِ، وكانَ ذَلِكَ الأمْرُ مَشْرُوطًا بِشَرْطٍ، فاخْتَلَفُوا في أنَّ ذَلِكَ الشَّرْطَ هَلْ حَصَلَ في ذَلِكَ القَوْمِ أمْ لا، فَحَصَلَتِ المُجادَلَةُ بِسَبَبِهِ، وبالجُمْلَةِ نَرَى العُلَماءَ في زَماننا يُجادِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عِنْدَ التَّمَسُّكِ بالنُّصُوصِ، وذَلِكَ لا يُوجِبُ القدْحَ في واحدٍ منها، فكذا هاهنا"[2].

وعليهِ فالتَّعبيرُ عن الدُّعاء بتأخيرِ العذابِ عن قوم لوطٍ رجاءَ الإيمانِ بالجدال، هو كنايةٌ عن رحمةِ إبراهيمَ ﷺ وحِلمُهُ الَّذي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/123.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/376، 377.

أشادَ اللّه تعالى بهِ في الآيةِ التّاليةِ، وأنَّه يتَّخِذُ أقوى الوسائِلِ دفاعًا عن النّاسِ لعلَّهم يتوبون لينجوا منَ الهلاكِ.

بلاغةُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾:

عظيمُ النَّفسِ يتَّخِذُ من التَّدابيرِ في مصلحةِ النّاسِ أقواها

اختُلِفَ في جوابِ ﴿فَلَمَّا﴾، فقيلَ: أخذَ وأقبلَ يجادلُنا، وعليهِ فمقتضى الظّاهرِ ما جاءَ عليهِ النَّظْمُ؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالماضي قد تحقَّق في جوابِ ﴿فَلَمَّا﴾ المقدَّرِ، "والمعنى: فلمّا ذهبَ عن إبراهيمَ الرَّوعُ، وجاءَتْهُ البُشْرى أخَذَ يُجادِلُنا في قومِ لوطٍ، وأقبلَ يجادِلُنا، ولم يُذْكَرْ في الكلامِ أخَذَ وأقبلَ؛ لأنَّ في كلِّ كلامٍ يُخاطَبُ بهِ المخاطَبُ معنى أخَذَ وأقْبَلَ؛ إذا أرَدْتَ حكايةَ الحالِ"[1].

وعلى هذا حُذِفَ الجوابُ، وبُنِيَ النَّظمُ الكريمُ على ذِكْرِ الفِعْلِ المُضارعِ مباشرةً، ونكتَةُ ذلكَ استحضارُ الحوارِ حيًّا كأنَّهُ يحدُثُ الآنَ، وتظلُّ هذه الحيويَّةُ، وذلك الاستحضارُ باقيَيْن ببقاءِ القرآنِ الكريمِ يُخاطِبُ كلَّ جيلٍ وكلَّ قبيلٍ، فيعيشونَ هذا التّاريخَ، كأنَّهُ واقعٌ مشهودٌ، ويبقى "تصويرُ هذه الحالةِ في الذِّهنِ تصويرًا حاضرًا، حتَّى تزدادَ منهُ العِبرةُ والعِظةُ"[2].

إنَّه يجادِلُ، ويَجِدُّ في الجدالِ، ويُساعدُ بالدِّفاعِ دونَ توانٍ، وينوِّعُ في أسبابِ الدِّفاعِ[3]، ويستنفِذُ الطّاقةَ، ويعتذِرُ عنهم لعلَّ اللّه تعالى يخفِّفُ عنهم، أو يمنحُهم فرصةً، ويؤجِّل نزولَ العقابِ، وعندَ نزولهِ يكونُ لكلِّ حادثةٍ حديثٌ، وإلى ذلكَ تتَّسقُ المؤازرةُ، وتُناسِبُ صعوبةَ اللَّحظةِ وعمقَ الشُّعورِ لديهِ ﷺ بما يقعُ على كاهلهِ بموجبِ طبيعةِ

(1) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/64.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/243.

(3) فيتدرَّج في سؤال الملائكة عن العدد الذي يمنع العذاب العامّ، ويوقف الاستئصال نزولًا حتى عدد خمسة من المؤمنين، "قال حُذيفةُ: كانت مُجادلتُهُ إيّاهُم أنّهُ قال لهُم: إن كان فِيهِم خمسُون يعنِي نفسًا أتُهلِكُونهُم؟ قالُوا: لا، قال: أرأيتُم فأربعُون؟ قالُوا: لا، قال: فثلاثُون؟ قالُوا: لا. حتّى انتهى إلى عشرة أو خمسة، شكّ سُليمانُ"، يُنظر: ابن أبي الدنيا، العقوبات، ص: 103.

تكوينهِ من الجِدالِ عن قريةٍ ستُهْلَكُ عن بَكرةِ أبيها؛ لعلَّهم ينتهونَ، فينجوا من الهلاكِ الأبديِّ والعذابِ الخالدِ.

وعلى افتراضِ أنْ جاء النَّظم: (جادلنا)؛ "لَمّا كان لهذا الأمر ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ هذا الوقعُ الصّادعُ على نفسِ إبراهيمَ، لأفلتَ من يدهِ ما كان مُمسكًا بهِ من المجادلةِ؛ لأنَّهُ كانَ قد جادَل فِعلًا، وانتهى الأمرُ، أمّا في هذه الحالةِ؛ فهو لا يزالُ يَسألُ ربَّهُ العفو والرَّحمةَ لهؤلاءِ القوم، ولا تزالُ الكلماتُ على شَفَتَيهِ، فإذا سَمعَ أمْرَ اللّه تعالى بالإعراضِ عن هذا، أمْسك لسانَهُ"[1].

نكتةُ حذْفِ المضافِ في الفعلِ:

تكريمُ اللهِ للملائكةِ الكرام، ومكانةُ الخليلِ عندَ اللهِ ﷻ

لم يجادِلْ إبراهيمُ ﷺ ربَّهُ ﷻ، وما ينبغي له أن يفْعلَ، وإنَّما كان يجادلُ ملائكةَ اللّه ﷻ ومَن يجادلُ الملائكةَ الكرامَ في أمرٍ كلَّفَهُمُ اللّه تعالى بهِ يكونُ كأنَّه جادلَ اللّه ﷻ لأنَّ ملائكتَهُ ﷺ نزلوا بأمرهِ لينفِّذوهُ، فـ "﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ أي: يجادلُ رسلَنا في حالهِم وشأنِهم، ففيهِ مجازٌ في الإسنادِ"[2]، فلم يَقُلْ: (يُجادلُ رسلَنا) ونكتةُ ذلك في أمرين:

الأوَّلُ: تكريمُ رسلِ اللّه تعالى في إضافتهم إلى اللّه ربِّ العالمين[3]، فأضافَ "سبحانَهُ المجادلةَ إلى نفسِهِ مع أنَّها كانت مع الملائكةِ؛ لأنَّ نزولَهم لإهلاكِ قوم لوطٍ إنَّما كانَ بأمرهِ تعالى فمجادلةُ إبراهيمَ ﷺ لهم هي مجادلةٌ في تنفيذِ أمرهِ تعالى وهذهِ المجادلةُ الَّتي كانت بين إبراهيمَ وبين الملائكةِ الَّذين أُرسلوا لإهلاكِ قوم لوطٍ، قد حكاها سبحانه في سورةِ العنكبوتِ في قولهِ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾ أي: القريةِ الَّتي يسْكنُها

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1174.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/299.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1175.

قومُ لوطٍ ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [الآيتان: 31 - 32].

وهذا التَّفسيرُ للمجادلةِ الَّتي دارت بين إبراهيمَ والملائكةِ في عقابِ قوم لوطٍ هو الصَّحيحُ؛ لأنَّ خيرَ تفسيرٍ للقرآنِ هو ما كان بالقرآنِ"[1]، وما قيل: بأنَّ "المرادَ منهُ السُّؤالُ عن حالِ العذابِ هل هو واقعٌ بهم لا محالةَ، أم هو على سبيلِ الإخافةِ ليرجعوا إلى الإيمانِ؟"[2]، فلا دليلَ عليهِ.

الآخرُ: في إقامةِ ضميرِ العظمةِ مقامَ المفعولِ كنايةٌ عن مكانةِ الخليلِ عليه السلام في أن يجادِلَ اللّه في أمرِ العبادِ، وفي ذلكَ من تكريمِ اللّه ﷻ لخليلهِ عليه السلام ومن رِفعةِ شأنِه ما فيهِ، كما يوحي بصدقِ إبراهيمَ عليه السلام في الدَّفعِ عن القوم؛ لعلَّهم يتوبونَ، ولِهذا الصِّدقِ والقوَّةِ في المجادلة وصفَهُ اللّه تعالى - كما سبق - بأوصافٍ ثلاثةٍ قلَّما تجتمع بهذا الكمالِ في النّاس ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾، تلكَ أوصافُ الرِّجالِ الَّذين هم في طبقةِ إبراهيمَ عليه السلام من أولي العزم من الرُّسلِ.

بلاغةُ حذفِ المضافِ في الاسم:

"وقَوْلُهُ: ﴿فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ عَلَى تَقْدِيرِ مُضافٍ؛ أيْ: في عِقابِ قَوْمِ لُوطٍ، وهَذا مِنْ تَعْلِيقِ الحُكْمِ باسْمِ الذّاتِ، والمُرادُ حالٌ مِنْ أحْوالِها يُعَيِّنُهُ المَقامُ، كقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: 3] أيْ: أكْلُها"[3]، وتظهر بلاغةُ الحذفِ في كونِ المخاطَب يعلمُ حالَ قوم لوطٍ، ويعلمُ أنَّ مجيءَ الرُّسلِ كان لغايةِ تأديبِهم وإنزالِ العقوبةِ فيهم، والنَّظمُ القرآنيُّ مبنيٌّ على الإيجازِ، فإذا تحقَّقَ المقصودُ من الكلام بأقلِّ حروفٍ؛ صيرَ إليهِ، هذا ما يقتضيهِ توجيهُ الحذفِ.

إذا تحقَّقَ مقصودُ الكلام لدى المخاطَبِ؛ فالحذفُ مسلكٌ بيانيٌّ قويمٌ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/243.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/301.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/123.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ:

المجادلةُ كانت في عموم أحوالِ قومِ لوطٍ ويدخلُ العقابُ دخولًا أوَّليًّا

استعمل النَّظمُ حرفَ الظَّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾، وذلك للإشارةِ إلى أنَّ الخليلَ ﷺ يجادلُ في عموم قوم لوطٍ لا في خصوصِ العقابِ؛ أي: إنَّهُ يُجادل في حالِهم السّابقةِ قبل الفاحشةِ، وفي أحوالِ بعضهم ممَّن لم يُبالِغْ فيها، وفي حالِهم إن آمنوا، واهتدَوا، وفي حال ممتلكاتِهم وصغارِهم وولْدانِهم، وما إلى ذلك من متعلِّقاتِ القوم، فهي مجادلةٌ عامَّةٌ لا خاصَّةٌ في شأنِ العقابِ، فكانَ حذْفُ المضافِ بغرضِ التَّعميم، ويَدْخُلُ المحذوفُ دخولًا أوَّليًّا في شأنِهم.

دلالةُ استعمالِ مفردةِ ﴿قَوْمِ﴾:

من أعظم البلاءِ اجتماعُ الجميعِ على الفحشِ البذيءِ

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ هنا بكلمةِ ﴿قَوْمِ﴾ للتَّعبيرِ عن السَّوادِ الأعظم من أهلِ قريةِ نبيِّ اللّه تعالى لوطٍ ﷺ الَّذين أجمعوا على استحلالِ الفاحشةِ، ومارسوها، لا فرقَ في ذلك بين خواصِّهم وعوامِّهم، وقدِ استعمَلتِ الآيةُ لفظَ ﴿قَوْمِ﴾ لأمورٍ: الأوّل: الدَّلالةُ على انتسابِ لوطٍ ﷺ إليهم من حيثُ الدَّعوةُ، فهو المكلَّفُ بهم، والثّاني: بيانُ رأفةِ إبراهيمَ ﷺ ورحمتِه بغيرِ قومِه، فقد تعدَّتْ رحمتُهُ قومَهُ إلى غيرِهم، والثّالث: الإشارةُ إلى أنَّهم كانوا قومًا متكاملين من جميع نواحي الحياةِ الاجتماعيَّةِ والاقتصاديَّةِ والسِّياسيَّة والقَبَليَّةِ؛ أي: إنَّهم لم يكونوا مجرَّدَ مجموعةٍ من الأوباشِ الَّتي تمارسُ الفاحشةَ، بل كانوا قومًا قائمين عليها، وهذا من أعظم البَلاءِ الَّذي تُبتلى بهِ الأممُ، اجتماعُ الجميعِ على الفُحْشِ البذيءِ.

علَّةُ الفصلِ:

الاستئنافُ البيانيُّ لبيانِ سببِ الجدالِ

جاء قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ مفصولًا عمّا قبلَهُ، استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا قد سألَ: لماذا هذا الجدالُ في قوم لوطٍ؟ فكان ذِكْرُ الصِّفاتِ الحَميدةِ مغنيًا عن الجوابِ، فهي

"بيانٌ للدَّواعي الَّتي حملتْ إبراهيمَ ﷺ على مجادَلةِ الملائكةِ في شأنِ إهلاكِ قومِ لوطٍ"[1]، "فالمقصودُ بتَعدادِ صفاتِه الجميلةِ المذكورةِ بيانُ ما حَملَهُ ﷺ عَلَى ما صَدَرَ عنْهُ من المجادلةِ"[2]، فهذهِ "الصِّفاتُ دالَّةٌ على رقَّةِ القلبِ والرَّأفةِ والرَّحمةِ، فبيَّن أنَّ ذلك ممّا حملَهُ على المجادلةِ فيهم رجاءَ أن يُرْفَعَ عنْهم العذابُ، ويُمْهَلُوا لعلَّهم يحدثون التَّوبةَ والإنابةَ، كما حملَهُ على الاستغفارِ لأبيهِ"[3]. فالجملةُ تعليلٌ؛ أي: لأنَّه حليمٌ أوّاهٌ منيبٌ يُجادلُ عنِ قومِ لوطٍ، وذلكَ في غايةِ الثَّناءِ على أخلاقِ الخليلِ إبراهيمَ ﷺ.

غرضُ التَّوكيدِ:

ساقَ اللهُ تعالى تلك الصِّفاتِ مؤكَّدةً بجملةٍ من المؤكِّداتِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾، منها: ﴿إِنَّ﴾، وصِيَغُ المبالغةِ الَّتي صِيغتْ فيها هذه الصِّفاتُ، فصِفةُ ﴿لَحَلِيمٌ﴾ على وزنِ (فعيل)، وصفةُ ﴿أَوَّٰهٌ﴾ على وزنِ (فعّال)، وصفةُ ﴿مُّنِيبٌ﴾ على وزنِ (مُفْعِل)، ولامُ التَّوكيدِ الدّاخلةُ على الخبرِ الأوَّلِ ﴿لَحَلِيمٌ﴾. وقد جاءَ كلُّ ذلك مناسبًا لكمالِ تلك الصِّفاتِ كمالًا بشَريًّا في الخليلِ ﷺ بقطعِ النَّظرِ عن وجودِ شَكٍّ شاكٍّ أو إنكارِ منكِرٍ، فإنَّ غرضَ التَّوكيدِ هو بيانُ حالِ إبراهيمَ ﷺ من قومِ لوطٍ، فقد يعترِضُ بعضُ الجهلَةِ، فيقولون: وهل لهذهِ المجادَلةِ داعٍ مع قومٍ هذا حالُهم؟ فيأتي التَّوكيدُ دافعًا لهذا الاعتراضِ ببيانِ تلكَ الصِّفاتِ الحميدةِ الَّتي تنطقُ بكلِّ رحمةٍ ورأفةٍ بعبادِ اللهِ.

صاحبُ صِفاتِ الحِلمِ والتَّأوُّهِ والإنابةِ محبوبٌ عندَ اللهِ تعالى ممدوحٌ عند الخَلقِ

بلاغةُ اجتماعِ الأوصافِ وترتيبِها:

في ذكْرِ هذهِ الأوصافِ مجتمعةً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ "إشارَةٌ بالثَّناءِ عَلَى إبْراهِيمَ إلَى أنَّ جِدالَهُ مَحْمُودٌ"[4]،

سببُ الجِدالِ اتِّصافُ الخليلِ بالأخلاقِ الكريمةِ والجِدالِ الحميدةِ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/243.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/227.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/412.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/347.

وهي "مَدْحٌ عَظِيمٌ منَ اللّه تعالى لِإبْراهِيمَ ﷺ"[1]، فقد عَدَّدَ اللّه تعالى فيها ثلاثَ صفاتٍ تَجْمَعُ أبرزَ محامدِ إبراهيمَ الخليلِ ﷺ فهي تجمعُ بين حِلمهِ بِغيرِهِ، والحليمُ هو "الصَّبورُ على الأذى، الصَّفوحُ عن الجنايةِ، المقابلُ لها بالإحسانِ"[2]، وهُو الَّذي لا يَتَعَجَّلُ بِمُكافَأةِ غَيْرِهِ، بَلْ يَتَأَنَّى فِيهِ، فَيُؤَخِّرُ، ويَعْفُو، ومَنْ هَذا حالُهُ؛ فَإنَّهُ يُحِبُّ منْ غَيْرِهِ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ، وهَذا كالدَّلالَةِ عَلَى أنَّ جِدالَهُ كانَ في أمْرٍ مُتَعَلِّقٍ بالحِلْمِ وتَأْخِيرِ العِقابِ، ثُمَّ ضُمَّ إلَى ذَلِكَ ما لَهُ تَعَلُّقٌ بالحِلْمِ، وهُو قَوْلُهُ: ﴿أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾؛ لِأنَّ مَنْ يَسْتَعْمِلُ الحِلْمَ في غَيْرِهِ يَتَأوَّهُ إذا شاهَدَ وُصُولَ الشَّدائِدِ إلَى الغَيْرِ؛ فَلَمّا رَأى مَجِيءَ المَلائِكَةِ لِأجْلِ إهْلاكِ قَوْمِ لُوطٍ؛ عَظُمَ حُزْنُهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وأخَذَ يَتَأوَّهُ عَلَيْهِ؛ فَلِذَلِكَ وصَفَهُ اللّه تعالى بِهَذِهِ الصِّفَةِ، ووصَفَهُ أيْضًا بِأنَّهُ ﴿مُّنِيبٌ﴾؛ لِأنَّ مَنْ ظَهَرَتْ فِيهِ هَذِهِ الشَّفَقَةُ العَظِيمَةُ عَلَى الغَيْرِ، فَإنَّهُ يُنِيبُ ويَتُوبُ، ويَرْجِعُ إلَى اللّه تعالى في إزالَةِ ذَلِكَ العَذابِ عَنْهُمْ"[3].

بلاغةُ النِّداءِ:

رِفْعةُ الخليلِ في ندائِهِ باسمِهِ وفي التَّمهيدِ في إخبارِهِ

في جملةِ النِّداء في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ بلاغةٌ عاليةٌ نوجزها في الآتي:

أوَّلًا: بلاغةُ الحذفِ، حيث حُذِف مَقُولُ القولِ، وقد "دَلَّ عَلَيْهِ المَقامُ، وهُو منْ بَدِيعِ الإيجازِ، وهُو وحْيٌ منَ اللّه تعالى إلَى إبْراهِيمَ ﷺ أوْ جَوابُ المَلائِكَةِ إبْراهِيمَ ﷺ فَإذا كانَ منْ كَلامِ اللّه تعالى فَقَوْلُهُ: ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ؛ لِإدْخالِ الرَّوْعِ في ضَمِيرِ السّامِعِ"[4]، ونكتةُ الإيجازِ احتمالُ الكلامِ للتَّقديرين؛ أي: تقديرُ أن يكونَ الكلامُ صادرًا عن اللّه تعالى أو عن ملائكتِه، وقد

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/377.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/243.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/377.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/124.

جاء النِّداء ﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ "على تقدير القولِ ليرتبِطَ بما قبلَه؛ أي: قالتِ الملائكةُ، أو قلنا: يا إبْراهيمُ"[1].

ثانيًا: استعمالُ أداةِ نداءِ البعيدِ ﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾، ونكتةُ ذلكَ رفْعُ شأنِ إبراهيمَ الخليلِ ﷺ ولم يَكْتَفِ النَّظمُ الكريمُ في ترضيةِ الخليلِ ﷺ بهذا، بل أُلحِقَ النِّداءُ والأمرُ ببيانِ العلَّةِ، وأنَّه قد جاءَ رُسُلُ ربِّكَ، وما دامَ الرُّسلُ الكرامُ قد نزلوا بالعذابِ، فلا مناصَ من تنفيذِهِ في العُصاةِ، ولا رادَّ لَهُ عَنْهم.

ثالثًا: النِّداءُ بالاسم الصَّريح ﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ تكريمٌ لهُ ﷺ وتقريبٌ لهُ[2]، وبخاصَّةٍ إذا كان المنادِي هو الله تعالى فيا لَهَذا الشَّرفِ حينَ ينادي اللهُ تعالى عبدًا من عبادِهِ باسمِهِ! ليُخفِّفَ عنه ما وراءَ الأمرِ ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾، قبل أن يوردَ عليهِ خبرَ القوم الأكيدَ، فيقطعَ عليه بهذا الخصوصِ آمالَهُ.

رابعًا: التَّمهيدُ للنِّداءِ، حيثُ مهَّدَ النِّداءُ للأمرِ القاهرِ بالنِّداءِ المشرِّفِ للخليلِ ﷺ ويُلحَقُ بالتَّعليلِ المقنعِ المريحِ لقلبِهِ، فيُحيطُ الأمرُ القاطعُ عليهِ رجاءَهُ إيقافَ العقوبةِ من حوله بما يُطَيِّبُ خاطرَه.

خامسًا: تعليمُ النّاسِ حُسْنَ الكلام، فبهذا يُعلِّمُنا الذِّكرُ الحكيمُ مَنْهجَ إلقاءِ التَّكاليفِ على النّاسِ، بأن يكونَ الأسلوبُ راقيًا؛ بحيثُ ينزلُ على القلوبِ بردًا وسلامًا مهما كان ثقيلًا.

غرضُ الأمرِ:

نزلَ الأمرُ بالإعراضِ عن الجدالِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ في شأنِ قومِ لوطٍ على سبيلِ الحقيقةِ؛ أي: توقَّفْ - يا إبراهيمُ - وطِبْ نفسًا، ولا تنشغلْ بهم، ولا تكترِثْ لأمرِ هؤلاءِ الفُسّاقِ، فبِسُوءِ

تـــركُ الـجـدال وحُسْنُ الامتثال من شِيَم الرِّجال

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/301.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3733.

أدَبهم وجُرْأتِهم على ارتكابِ الفاحشةِ يُعاقبونَ، وغرضُ الأمرِ: إلزامُ إبراهيمَ ﷺ بترْكِ الجدالِ، وحسنِ الامتثالِ، فكأنَّهُ قال: "أعْرِضْ عَنْ هذا الجدالِ، وإن كانتِ الرَّحمةُ دَيْدَنَكَ، فلا فائدةَ فيهِ، إنَّهُ قَدْ جاءَ أمْرُ رَبِّكَ، وهو قضاؤهُ وحُكمُهُ الَّذي لا يصدرُ إلّا عن صوابٍ وحِكمةٍ، والعذابُ نازلٌ بالقوم لا محالةَ، لا مَردَّ لهُ بِجدالٍ ولا دُعاءٍ ولا غيرِ ذلك"[1]، ولمّا علِمَ الخليلُ غرضَ الأمرِ، وعلِمَ أنَّ للّه مرادًا قاطعًا فيهم، "قدَّمَهُ على مرادِهِ، ولم يَنْطِقْ بعدَهُ ببنْتِ شَفَةٍ"[2].

سرُّ الأمرِ بالإعراضِ دونَ النَّهي عن الجدالِ:

مَن هانَ حُكْمُ اللهِ تعالى عندَهُ؛ هانَ عندَ اللهِ وعندَ أصفيائِهِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مادَّةِ الإعراضِ في قوله تعالى: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ دون أن يكون النَّهي عن المجادلةِ مباشرًا؛ وذلك لما فيها من كنايةٍ عن تولِّي الشَّخصِ وإعطائهِ الشَّيءَ عُرْضَهُ، وفي ذلك دليلٌ على عدم انشغالهِ بهِ، وترْكِ الاكتراثِ لهُ، وعدم الاهتمام بشأنِهِ، فهي مادَّةٌ لغويَّةٌ مصوِّرةٌ، ومعبِّرةٌ عن المقصودِ أتمَّ تعبيرٍ.

لذلك كان في استقبال الشَّيءِ، وجعْلِهِ قُبالةَ الشَّخصِ دليلٌ كنائيٌّ على الاهتمام بهِ، والاحترام لهُ؛ ولذلك كان الرَّسولُ ﷺ «إذا اسْتَقْبَلَهُ الرَّجُلُ، فَصافَحَهُ، لا يَنْزِعُ يَدَهُ عَنْ يَدِهِ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُو الَّذِي يَنْزِعُ، ولا يَصْرِفُ وجْهَهُ، حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُو الَّذِي يَصْرِفُهُ، ولَمْ يُرَ مُقَدِّمًا رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ جَلِيسٍ لَهُ»[3].

وقد آثرَ النَّظمُ نهيَ الخليلِ ﷺ عن الجدالِ بقولِهِ: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ دون النَّهي عن الجدالِ مباشرةً، فلم يقل: (لا تجادِلْ عنهم)، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: 107]، وذلك لسِرٍّ بديعٍ، وهو أنَّ المجادلَةَ عنهم لن تُؤثِّرَ فيما نزلَ

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/412.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/334.
(3) ابن المبارك، الزهد والرقائق: 1/132.

فيهم من حكم اللّه القاطعِ القاضي بتعذيبهم، بخلافِ نهي النَّبيِّ ﷺ عن المجادلةِ في المنافقين، فلم يُجادلْ ﷺ في عقوبةٍ ماحقةٍ، فكلمةُ (أعرِضْ)، تعني: انصرِفْ بالكلِّيَّةِ، ولا تُعِرْهم أدنى اهتمامٍ، وقِفْ عندَ حُكم اللّه ﷻ فيهم، وفي ذلك كنايةٌ عن هوان القوم على اللّه تعالى وكذلكَ أصحابُ الفواحشِ يَهونونَ عليهِ ﷻ فيلقي بهم في النّارِ، ولا يبالي، ولهذا يقولُ النَّبيُّ ﷺ «إنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمينُ يَوْمَ القِيامَةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ اللّه جَناحَ بَعُوضَةٍ، اقرَؤُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: 105]»[1].

بلاغةُ استعمالِ اسم الإشارةِ:

بيانُ قربِ زمانِ الأمرِ بالإعراضِ من زمانِ الجدالِ وأنَّهما في وقتٍ واحدٍ

اسمُ الإشارةِ في جملةِ ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ يطوي تفاصيلَ ما سبقَ من "الجدالِ في أمْرِ قَوْمِ لُوطٍ والاسْتِرْحام لَهُمْ"[2]، ويصُبُّ عليها أمرَ الإعراضِ، وفي ذلك الطَّيِّ - بالإضافة إلى الإيجاز - صرفُ أسبابِ الهَمِّ والغمِّ عن خليلِ الرَّحمنِ عليه السلام لتأسُّفِهِ وحزنِهِ من هلاك قوم لوطٍ، بطبيعةِ حلمهِ ورقَّةِ قلبهِ الَّتي امتدحَهُ بها القرآنُ الكريمُ حيثُ يقولُ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾، وقد عادَ اسمُ الإشارةِ إلى معنًى معقولٍ لا محسوسٍ؛ وذلك لبيانِ قربِ الجدالِ من الأمرِ بالإعراضِ عنهُ، ولتشخيصِ المشهدِ الَّذي حصلَ في ذلك الجدالِ، فالجدالُ والأمرُ بالإعراضِ كانا في وقتٍ واحدٍ، وهذا من بديعِ الكشفِ عن الوقائعِ التّاريخيَّةِ.

بلاغةُ ذكرِ ضميرِ الشَّأنِ:

ضميرُ الشَّأنِ دعوةٌ لاستجماعِ المعاني والتَّهيئةِ قبل إلقاءِ الخَبَرِ

لضميرِ الشَّأنِ شأنٌ في النَّظم القرآنيِّ، فذِكْرُه يُفصحُ عن دلالةٍ مقصودةٍ، فلو قيلَ في النَّظم: (أعرِضْ عن هذا قد جاءَ أمرُ ربِّكَ) في جملةِ: ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بدونِ ذكرِ: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ لصحَّ المعنى،

(1) البخاري، الجامع الصّحيح: 6/93، 65 - كِتابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بابُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [الكهف: 105] الآيَةَ، الحديث رقم: (4729).

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/109.

غير أنَّ لضميرِ الشَّأنِ غرضًا، وهو التَّهيئةُ لاستقبال ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ المؤكِّدةِ؛ فالكلامُ لا يتهيَّأُ لها بدونهِ، كما أنَّه يثيرُ نفسَ إبراهيمَ ﷺ نحو ما يُفَسَّرُ بهِ هذا الضَّميرُ الَّذي لم يسبِقْ لهُ مرجعٌ في الكلام، فهو استِجماعٌ للمعنى كلِّهِ في ضميرٍ واحدٍ، بحيثُ يكونُ لهُ أهمِّيَّةُ الانتباهِ لما سيُلقى من الخطابِ، والمعنى: "أنَّ الحالَ والشَّأنَ فيهِمْ قَدْ قُضِيَ بِمَجِيءِ ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ الَّذي قَدَّرَهُ لَهُمْ ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ بِجِدالٍ ولا شَفاعَةٍ، فَهُو واقِعٌ ما لَهُ مِنْ دافِعٍ"[1].

عِلَّةُ فصلِ الكلام عن السّابق:

تعليلُ عدمِ استجابةِ الدُّعاءِ فإنَّ العذابَ إذا حلَّ؛ لم يُدفَع

جاء قولهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ مفصولًا؛ لأنَّه جاء استئنافًا بيانيًّا، بغرض التَّعليلِ، فكأنَّ إبراهيمَ ﷺ قد بدرَ منهُ سؤالٌ، لماذا أُعْرِضُ عن الجدالِ، فكان الجوابُ على ذلك: لأنَّه قد جاءَ أمرُ ربِّك، والمقصودُ بقولِهِ تعالى: "﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ هو قضاؤهُ وحُكمُهُ الَّذي لا يَصْدُرُ إلّا عن صوابٍ وحِكمةٍ"[2]، وفي ترتُّبِ هذهِ الجملةِ على دعاءِ إبراهيمَ ﷺ بدفعِ العقابِ فائدةٌ، وهي: "أنَّ الدُّعاءَ إنَّما هو أن يُوفِّقَ اللّه الدّاعيَ إلى طلبِ المقدورِ، فأمّا الدُّعاءُ في طلبِ غيرِ المقدورِ؛ فغيرُ مُجْدٍ ولا نافعٍ"[3]، فإنَّ اللّه يُمهِلُ، فإذا جاءَ أمرُهُ، لم ينفعِ الدُّعاءُ حينئذٍ.

نكتةُ التَّوكيدِ:

إزالةُ أيِّ محاولةٍ للجدالِ في مطالبةِ رفعِ العقوبةِ

جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ مؤكَّدًا بأكثرَ من أداةِ توكيدٍ، ونكتةُ ذلك: إزالةُ أيِّ محاولةٍ مَهما قلَّت، أو صغُرَت في نفسِ إبراهيمَ ﷺ فإنَّ الأمرَ حتميٌّ قطعيٌّ لا مجادلةَ فيهِ ولا محاورةَ، فنكتةُ التَّوكيدِ إزالةُ أيِّ عوائقَ نفسيَّةٍ ليكتملَ التَّسليمُ، وتهدأ النَّفسُ.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/109.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/412.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/193.

بلاغةُ الاستعارةِ:

إسنادُ المجيءِ للأمرِ في قولِه تعالى: ﴿جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ إسنادٌ مجازيٌّ؛ حيث إنَّ الأمرَ لا يجيءُ، وفي استعمال لفظ الأمرِ استعارةٌ، حيث شُبِّهَ الأمرَ بشخصٍ يجيءُ، وحذفَ المشبَّهَ بهِ، وذكرَ المشبَّهَ على سبيل الاستعارةِ المكنيَّةِ الأصليَّةِ؛ إذ إنَّ الفعلَ "﴿جَآءَ﴾ يُسنَد إليه الجواهرُ والأعيانُ، وما يُرادُ تجسيدُهُ من المعاني"[1]، و(الأمر) معنًى ليس جوهرًا ولا عينًا، فإسنادُ المجيءِ إليه إذًا يُضفي عليه صفةَ التَّجسيدِ، فكأنَّهُ قد صارَ جسمًا محسوسًا يَجِيءُ بِنفسِهِ، وفي ذلك تقريرٌ للأمرِ، وتَثْبيتٌ لِمَجيئِه، بحيثُ لا يُناقَشُ، ولا يُجادَل فيه، وذلك يناسبُ نهيَ إبراهيمَ ﷺ بالإعراضِ عن الجدالِ، حيثُ صوَّرَ حتميَّةَ الأمرِ الرَّبّانيِّ.

إسنادُ المجيءِ إلى المعاني لا الأعيانِ لتقريرِ المجيءِ وحتميَّتِهِ

معنى التَّعريفِ بالإضافةِ:

عُرِّفَ الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ بالإضافةِ، وهي بمعنى (من)؛ أي: جاء أمرٌ من ربِّك، فأفادتِ الإضافةُ أنَّ المجيءَ فيه معنى النُّزولِ؛ أي: إنَّ حُكْمَ اللهِ قد نزلَ بمعاقبةِ أولئكَ الشّاذِّين عن الفطرةِ، المنتكسين خَلْقًا وخُلُقًا.

حكمُ الأمرِ نازلٌ من ربِّ العالمين بشأنِ الشّاذِّين

بلاغةُ اختيارِ الرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ في سياقٍ واحدٍ:

جاءتْ إضافةُ لفظِ الأمرِ إلى لفظِ الجلالةِ في شأنِ البشرى في قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، بينما في شأنِ العذابِ، فقد أُضيفَ الأمرُ إلى لفظِ الرُّبوبيَّةِ، والتَّبشيرُ بالولدِ والإخبارُ عن العذابِ كلاهما من مقتضيات توحيدِ الرُّبوبيَّةِ، فيُسألُ عن سرِّ ذلكَ؟

وقد سبقَ بيانُ أنَّ ذكْرَ لفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ لما فيه من توريثِ المهابةِ المُزيلةِ للتَّعجُّبِ، فإنَّ

أُوثِرَتِ الرُّبوبيَّةُ؛ لأنَّ استئصالَ المفسدين رعايةٌ لبقيَّةِ الخلقِ وأُوثِرَتِ الألوهيَّةُ للإشارةِ إلى دعوةِ المبشَّرِ بهم للتَّوحيدِ

(1) القيعي، الأصلان في علوم القرآن، ص: 387.

المقامَ هو مقامُ تسليمٍ وإذعانٍ لأمرِ اللّه تعالى وهو ما يتناسبُ مع الألوهيَّةِ، ولمّا كانَ غايةُ التَّبشيرِ بالولدِ؛ فيهِ إقامةٌ لأحكام الشَّرع والدَّعوةُ للتَّوحيدِ، فهو تبشيرٌ لا بالولدِ فحسبُ، بل بالأنبياءِ الدّاعين إلى دينِ التَّوحيدِ، فكانَ ذلك أنسبَ من ذكرِ الرُّبوبيَّةِ.

أمّا آيةُ مجيءِ العذابِ؛ فأُوثِرَ ذِكرُ الرُّبوبيَّةِ لما في نزولِ العذابِ من رعايةٍ لبقيَّةِ الخلقِ، فإنَّ الفِطْرةَ إذا فسدَتْ، وبطلَ صلاحُها؛ كان استئصالُها الأصلحَ لبقيَّةِ النّاسِ، وهذا ما يتَّفق مع الرُّبوبيَّةِ.

دلالةُ إضافةِ لفظِ الرَّبِّ إلى ضميرِ المخاطَبِ:

تشريفُ المخاطَبِ وتكريمُهُ

دلَّت إضافةُ لفظِ الرَّبِّ إلى ضمير المخاطَبِ في قولهِ تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾ على تشريفِ المخاطَبِ وتكريمهِ، فخطابُ العبدِ تكريمٌ، وإضافةُ لفظِ الرُّبوبيَّةِ بالغيبةِ تشريفٌ، وفيه تمامُ الرِّعايةِ وكمالُ العنايةِ بالمخاطَبِ.

دلالةُ العطفِ على السّابق:

عطفُ الخبرِ على الخبرِ؛ لتأكيدِ تحقُّقِهِ وبيانِ تفاصيلِهِ

عُطِفَت جملةُ ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ على قولهِ: ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾؛ لبيانِ أنَّ مجيءَ أمرِ اللّه تعالى هو حكمُهُ وقضاؤهُ، فلا يُرادُ بهِ نزولُ العذابِ الفعليِّ، وإنَّما "يرادُ بالمجيءِ المُشارَفةُ، فلا يتكرَّرُ مع قولهِ سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾"[1]، فيكونُ المرادُ بالجملةِ العاطفةِ هو الإخبارُ بإتيانِ العذابِ دون ردٍّ له، فالجملةُ الأولى إخبارٌ بحكم اللّه وقضائهِ، والثّانيةُ إخبارٌ بإتيانِ العذاب فعلًا غيرَ مردودٍ، فهو إخبارٌ بالوعيدِ، فهما خبرانِ اثنانِ، لا تكرارَ فيهما.

غرضُ التَّوكيدِ:

أُكِّد الخبرُ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ زيادةً في تهدئةِ نفسِ إبراهيمَ ﷺ بعد تهدئتهِ في الخبرِ السّابقِ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/301.

دلالةُ إسنادِ المجيءِ إلى أمرِ الله، والإتيانِ إلى العذابِ:

يُلاحَظُ الاختلافُ في التَّعبيرِ عند الاختلافِ في المعاني

أُسنِدَ المجيءُ إلى أمرِ اللّه، والإتيانُ إلى العذابِ؛ وذلك لبيانِ المغايرةِ بين مجيءِ أمرِ اللّه تعالى وبين إتيانِ العذابِ، وبذلك التَّبايُنِ تَمايَزَ ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ بنزول العذابِ عن العذاب نفسِه، وإذا كان "الإتيانُ مجيئًا بسهولةٍ"[1]؛ فإنَّ إثباتَهُ للعذابِ يُوحي بهوانِهم على اللّه ﷻ وتعلُّقِ العذابِ بهم، ويتَّسِقُ مع قولِ اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: 30].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ اسم الفاعلِ:

زيادةٌ في تقريرِ ثبوتِ إتيانِ العذابِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باسم الفاعلِ الدّالِّ على الثُّبوتِ في قولِهِ تعالى: ﴿ءَاتِيهِمۡ﴾؛ لتقريرِ إتيانِ العذابِ، "أي: إتيانًا ثابتًا"[2]، وأنَّ إتيانَهُ أمرٌ مقضيٌّ به، وقضاءٌ نافذٌ لا محيصَ عنهُ، مع الدِّلالةِ على المستقبلِ، فإنَّ هذه الصِّيغةَ دالَّةٌ على وقوعِ الإتيانِ في المستقبلِ.

غرضُ التَّنكيرِ:

تهويلُ العذابِ وتفخيمُهُ

تنكيرُ لفظِ ﴿عَذَابٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٍ﴾ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، فهو يوحي بخطورتِهِ، وأنَّه من الهولِ والفظاعةِ بحيثُ لا يُقادَرُ قدرُهُ، وهذا الـ ﴿عَذَابٌ﴾ هو أمرُ اللّه تعالى وقضاؤُهُ الَّذي قضاهُ على قومِ لوطٍ ﷺ ويَتَمَثَّلُ هذا العذابُ في "الخسْفِ والحصْبِ بالحجارةِ"[3].

نكتةُ وصفِ العذابِ في سياقِ المجادلةِ:

اختيارُ الأوصافِ المناسبةِ للسِّياقِ أقربُ للإفهامِ وآكدُ للأفهامِ

جاءَ القَيْدُ بالوصفِ ﴿غَيۡرُ مَرۡدُودٍ﴾ تأكيدًا لوقوعِ العذابِ بقومِ لوطٍ ﷺ فهو قيدٌ يقطعُ على الخليلِ ﷺ رجاءَهُ منْحَهُم الفرصةَ

(1) الراغب، المفردات: (أتى).
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/334.
(3) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/292.

ليتوبوا، فلمّا جادلَ الخليلُ ﷺ حَسُنَ بيانُ الأمرِ. وتأكيدُ وقوعِ العذابِ بعدم ردِّهِ، وهو الأنسبُ في سياقِ المجادلَةِ؛ أي: لا تعُد لمجادلتِكَ فيهم مرَّةً أخرى.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجِدالُ والحِجاجُ:

الفَرْقُ بينَ الحِجاجِ والجِدالِ: "أنَّ المطلوبَ بالحجاجِ هو ظهورُ الحُجَّةِ، والمطلوبُ بالجدالِ: الرُّجوعُ عن المذهَبِ، فإنَّ أصلَهُ منَ الجَدْلِ، وهو شدَّةُ الفَتْلِ... ويؤيِّدهُ قولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَالَنَا﴾ [هود: 32]. وذلك أنَّ دأْبَ الأنبياءِ ﷺ كان ردْعَ القوم عن المذاهبِ الباطلةِ، وإدخالَهُم في دينِ اللّه ببذلِ القوَّةِ والاجتهادِ في إيرادِ الأدلَّةِ والحُججِ"[1].

الجِدالُ والمراءُ:

"قيل: هما بمعنًى، غير أنَّ المراءَ مذمومٌ؛ لأنَّهُ مخاصمةٌ في الحقِّ بعد ظهورِهِ، وليس كذلك الجدالُ"[2] قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾.

الإنابةُ والرُّجوعُ:

"أنَّ الإنابةَ: الرُّجوعُ إلى الطّاعةِ، فلا يقالُ لمن رجَعَ إلى معصيةٍ: إنَّه أنابَ، والمُنِيبُ اسمُ مدحٍ كالمؤمنِ والمتَّقي"[3].

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللغوية، ص: 158.
(2) العسكريّ، معجم الفروق اللغوية، ص: 159.
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللغوية، ص: 75.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»